

منهج تجديد التاريخ

الأستاذ /محمد شيخ

قسم الفلسفة - جامعة تلمسان - الجزائر -

إن « العروي » لا يدعو إلى تبني مذهبا فكريا ولا إلى اعتناق نزعة علمية معينة فهو عندما يصر إلى ضرورة الالتفات إلى أهمية التاريخانية لا يفصل ذلك من موقع داعية، يعد بجنان عدن، و لا من موقع مثقف حالم يحمل لواء مشروع نهضوي فاشل من بداية لكونه يدعو إلى آمال لا تتحقق أبدا و إنما غرض «العروي» يكمن في العمل على إيقاظ الهمم لإنقاذ تاريخنا من القراءات المؤجلة التي كثيرا ما أساءت إلى فهمنا لماضيها. خاصة تلك القراءات التي يتبناها التأليف الاستعماري الذي يتميز بمنهجية التعسفية و التي كثيرا ما أسرت العديد من الحقائق من خلال محاولتها حجب عن وعي أو غير وعي عنا حقائق رأت فيها الدافع الأساسي الذي بإمكانه أن يحدث ثورة داخل مجتمعات أعيتها الأوهام و الأحلام من فرط ما عاشت الانتكاسات و الهزائم.

إن «العروي» مؤرخ موضوعي يحدد التاريخ عبر استعمارية بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات الإغارة آليات العلوم الاجتماعية و الدقيقة و حتى الفلسفية المتقدمة بشكل ملفت للانتباه داخل المجتمعات المتقدمة تاريخيا و أعني هنا أوروبا، و الغرب عموما الذي عرف مدارس مثل: الحوليات في فرنسا، و الاقتصاد الجديد في انجلترا و الأركيولوجيا الجديدة في أمريكا لهذا نجد «العروي» كما أشرت يدعو إلى ضرورة تبني فتوحات هذه العلوم التي يحط كل آماله في أن تمنح له، و بعد البحث و الدراسة المعمقين إمكان تجديد تاريخ المغرب من جهة و تاريخ العربي الإسلامي من جهة أخرى، و التي يرى فيها عوننا حقيقيا للمؤرخ التواق إلى إقامة ميزات تاريخ جديد مشدود إلى هذه الفتوحات لكنه لا يقر في آن معا (الأمر هنا مرتبط «بالعروي» تحديدا) بأنها الوحيدة الكفيلة بإحداث تطورا على مستوى التأليف التاريخي و إنما يلتفت إلى جانب ذلك إلى التأليف القديم دون أن يتخلل أو يدير ظهره عنه.

إن الفكر العربي بالنسبة إلى «العروي» سواء ما تعلق بتقديمه أو بحديثه فهو فكر بعيد كل البعد عن قدرة إستيعاب فكرة التاريخ، لهذا يصر أن النهضة المأمولة تنطلق من وعينا بتاريخنا، و ما دام لم يحصل لنا ذلك لا يمكننا البتة الحديث عن نهضة عربية، ذلك لأن صناعة التاريخ لدى «العروي» تساهم في الرفع من مستوى الوعي و تعميقه ليس عند المؤرخ فحسب بل عند

المواطن أيضا ولعل أهم سؤال يحاول من خلاله «العروي» تقديم رؤية جديدة للكتابة التاريخية، ومنه التأسيس التاريخ الجديد هو ذلك المرتبط بالحقيقة و التاريخ، فهل كان «العروي» يبحث من خلال صناعة التاريخ عن «الحقيقة» أم اعتمد التاريخ منهجا من أجل بناء مشروعه الفكري الذي سوف نتطرق إلى محدداته ومقوماته وذلك من خلال اعتمادنا على أهم مرجع رأينا أنه أساسي لفهم دلالة التاريخ الجديد من جهة وصداه الواسع في المغرب و في العالم الإسلامي و المتمثل في كتابة مجمل تاريخ المغرب الذي صور في مجلد واحد بضم ثلاث كتب.

يرى «العروي» أن المؤرخ الحق هو الذي يسلك الوعي بالتغير و يميزه عن الأراخ الذي يجمع الأخبار و يحافظ على الآثار الباقية و يستعمل المصطلحات الحافظ و المحافظ و الخازن و القيم، و الهدف الأول عند الأراخ ينحصر فقط في مكافحة النسيان، كثيرا ما يذكر «العروي» أن المسلمون همشوا التاريخ من خلال إقصائه و إبعاده عن النظام التعليمي، و هذا ما أثر سلبا على الكتابة التاريخية في تاريخ العرب المسلمين. و من هذا المنطلق يتساءل «العروي»: هل بالإمكان الإنسان أن يطلع على أحداث الماضي و هو فاقد للوعي التاريخي؟.

التاريخ يقول «العروي» فن قبل أن يكون علما و رواية قبل أن يكون مقالة تحليلية و يخطئ أولئك الذين يجعلون منه مجرد قراءة لأحداث الماضي، ذلك لأن التاريخ لا يسرد إلى ما تبقى من الماضي محفوظا في الذاكرة أي أن التاريخ في كل حين و ماضي، إذ يحدثنا عن وقائع ماضية، لكنه في الوقت نفسه حاضر في ذهن ذلك الذي يروي تلك الأحداث، لهذا كان التاريخ في جوهره استحضارا، فعندما نضطلع بالقراءة على كتاب من كتب المؤرخين فإننا في واقع الأمر لا نستحضر الواقعة و إنما نستحضر الكيفية التي من خلالها استحضروا هؤلاء الواقعة. تعني منهجية التاريخ بمسائل مثل: ما هو الحدث؟ ما هي الوثيقة؟ ما هو النقد؟ ما هي الرواية؟ ما هو دور الماضي في فهم الحاضر و دور الحاضر في فهم الماضي؟ قضايا تندرج في مجموعه ضمن فكرة أساسية و هي أن التاريخ ماضي-حاضر، و التفكير في صناعة المؤرخ هو التفكير في كيفية تعامله مع أحداث ماضية، حالة في شواهد دالة عليها 1.

التاريخ لا يعرف ثباته، فهو دائم التغير و التطور، فهو محكوم بقانون الإطار و الأحداث و سيطال هذا التغير توسعا من حيث التعاطي مع مفهوم المنهاج التاريخي بحيث سيتوسع معناه هو الآخر، فالمؤرخ لم يعد يهتم بالرواية بقدر ما أصبح يهتم بالتحليل و النقد، ليكون بذلك قد ابتعد عن زملائه الأدباء ليقترب من علماء الاجتماع، أما التاريخ كمنهاج فإنه لم يبق

تاريخ أشخاص و عائلات و إنما أصبح تاريخ بني و تنظيمات فخرج عن حيز الإنسانيات محاولا الانتماء إلى الطبيعيات، مثل ذهب إلى ذلك التصور التاريخاني الذي استمد وجوده مما حققته الفتوحات الوضعانية Positivisme.

التأليف يقابله التحليل و معناه الجمع و التركيب، و عرف هذا النوع من الكتابة التاريخية تواجده بأوروبا القرن التاسع عشر حيث جعل منه مؤرخوها مادة خام يعتمدون عليها في بناء الأحداث التاريخية، و حاولوا من خلال الكشف عن الذهنية المغربية، و يمتاز بالتوسيع من معنى الوثيقة، كان المؤرخ الاستعماري و من خلال الحفر، و تسجيل الروايات الشفوية و جمع الوثائق المكتوبة رسمية كانت أو أدبية يارس نقدا هو في الحقيقة كما يشير «العروي» مجموع ملاحظات مترتبة عن تلك المبادئ، و مطبقة بكيفية آلية على المعلومات التقليدية و سبب هذا النقد الافتراضي المنفصل تماما عن ترابط الأحداث. أجرى المؤرخون الاستعماريون أحكاما سلبية على تاريخ المغرب فقالوا أنه تاريخ ناقص متعثر، دوراني، و قالوا إنه تاريخ غامض، تاريخ قبائل متأخرة 2.

ولما كان الأمر على هذا الحال فإن التأليف الاستعماري لا يمكنه أن يحمل موضوعيته المطلقة، لكونه سيغدو و انطلاقا من هذه الأحكام التي يصدرها بعد قراءة تعسفية، على أحداث ماضي المغرب، إذ مارس نوع من فصل المنهج عن الموضوع فإنه لن يكون إلا مكرسا لرؤية إيديولوجية تعيق ديمومة الكتابة التاريخية المضبوطة، و هو ذلك لم يعد بعد يقول «العروي» إن نقده للأحداث متفرع عن مفهوم مسبق لكلمة دولة و لتصور مسبق لعلاقات السلطة المركزية بالسلطات المحلية القبلية أو الحرفية « لا أحد يستطيع اليوم و في المستقبل القريب أن يحرر الدراسات قبل تاريخ المغرب من قبضة أساتذة «جامعة الجزائر الاستعمارية» غير أن همهم السياسي واضح إلى حد أن تعريته لا تستلزم التسلح بالتقنيات الحديثة، إن القارئ العادي المشارك في علم التاريخ يرى بوضوح الهوة التي تفصل نتائج بحوثهم التخصصية و تقييماهم النهائية³، فالمؤرخ الاستعماري حاول أن يسجننا نحن المغاربة في مأزق التالي: إذا قصصتم أحداث التاريخ فإنكم تقصون في الحقيقة أعمال الغزاة الدخلاء على أرض المغرب، أما إذا أردتم أن تتكلموا عن السكان الأصليين، فلا يمكنكم أن تخرجوا من نطاق قبل و قبيل التاريخ، و منذ كانت محاولة «العروي» في تحديد التاريخ بحثا و دراسة، خاصة التاريخ المغربي كي ما يخلص من القراءات المؤدلجة و الممارسة عليه من قبل المؤرخ الاستعماري الذي كانت تحركه دوافع مبنية يحاول من خلالها محو تاريخ مليء بالأعماق و الانتصارات، تاريخ حضارة و بنفي فكرة التاريخ

من ماضي المغرب، و إبقاؤه في ميدان قبيل التاريخ، يظن هذا المؤرخ أنه سينجح في إقصاء الصورة الحضارية الخاصة (أي الصورة العربية الإسلامية) لأنه يتحسر دائما على إخفاق صورة أخرى، الصورة الرومانسية، لهذا يريد عنوة التغافل عن استعادة مجد هذه الأخيرة، و بما أن التأليف الاستعماري كان مليئا بالأحكام السلبية، المبنية على مفاهيم غير مرتبطة ارتباطا عضويا بوقائع التاريخ المغربي، نشأ التأليف الاستعماري في أحكامه و مراميه، إلا أنه وافقه في مناهجه ليكون بذلك قد جمع بين الجدة و التقليد، فهو بالنسبة إلى التأليف الأول (العربي القديم) يعتبر جديدا كل الجدة، أما بالنسبة إلى البحث العلمي المعاصر الدقيق فإنه يرى بأنه ليس غريبا عن التأليف الاستعماري، فهو تقليدا له، الفرق الوحيد بينهما هو التأليف المغربي يقر بوجود الدولة المغربية واقعا قائما منذ بداية الحقبة الإسلامية، و من هذا المنطلق يمكن القول مع «العروي» أن التأليف المغربي مر بثلاث مراحل، في كل مرحلة يتعامل الدارسون مع نوع خاص من الوثائق، يهتمون بنوع من الأحداث، ينتقدونها بعقلية خصوصية، ثم يروون الوقائع في قالب موروث بهدف اعتباري تربوي، هذه عناصر مترابطة إذا تغير أحدها تغيرت كلها و لا تتجدد صناعة المؤرخ بقول «العروي» إلا للمغرب يدعو «العروي» بدوره إلى ضرورة تجديد و من منطلق علمي بعث الكتابة التاريخية و ألا نتركها في أيدي قراءات تعسفية تصدر أحكاما مجانية تمنع على الباحث إمكان الكشف عن حقيقة الحدث، و يأتي علم من العلوم الاجتماعية المعاصرة، بحيث نجد كل واحد منها يحاول أن تحدث نوع من التداخل المنهجي في دراسته لموضوعه المخصوص، فما الدعوة إلى تجديد المنهج التاريخي إلا نتيجة حتمية لتطور العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع و علم النفس و العلوم الدقيقة مثل الفيزياء و الالكترنيات، و الفلسفة مثل الابستمولوجيا و النقد الثقافي، كل هذه الميادين أسهمت بشكل فعال في إيقاظ لدى المؤرخ ضرورة تجديد التاريخ، فالأركيولوجيا الجديدة التي عرفت وجودها بأمريكا كانت نتاج تطور فيزياء الأرض «يتحول مركز التاريخ بقول «العروي» من مستوى إلى آخر، من الأفراد إلى المؤسسات، من الحرب إلى الثقافة، من السياسة إلى التقنيات.. الخ فتتغير النظرة إلى السيرة و تطور الحقبة المتميزة عندها تتحول المفاهيم إلى تحدّد ذهنية المؤرخ» 4.

فالأركيولوجي لا يعتمد اليوم على الأثریات بقدر ما يعتمد على الأرقام التي يتوصل إليها من خلال تطبيقه لقواعد الإحصاء عليها، لم يعد النقد لدى المؤرخ الذي يعتمد على عملية تداخل مناهج العلوم هو فهم و تحقيق المقاربة و الترتيب، و إنما صار بالنسبة إليه مدرج ضمن رؤية ابستمولوجية عامة.

تهتم بجدل الناظر والمنظور في أي علم وعلى أي مستوى لا يكتفي المؤرخ المعاصر بالقول بأن هذه الوثيقة مزورة وأن الأخرى سليمة و حقيقية، بل يقول: للتزوير دلالة، و للوثيقة المزورة قيمة مثلاً و إن كانت غير قيمة الوثيقة الصحيحة، النقد لديه نقد و انتقاد، إذ حتى و إن اعتمد هذا المؤرخ على منهج جديد مغاير عن المؤرخ التقليدي الذي يعتمد على التأليف و الوصف، إلا أنه لا يجد ثمة جدوى من الدعوة إلى التخلي عنه، فالمؤرخ المعاصر نفسه كثيراً ما يسأم من الدراسات المطولة المعتمدة على الدراسات التحليلية، من الكتب و حول الوثائق، فيتوق إلى الارتقاء في أحضان الماضي كما لو كان أحد مشاهديه، فيكتب على النمط التقليدي القديم المنحدر من الطبيعة التربوية و الأسطورة، و نلمس ذلك من خلال ما نلاحظه اليوم من تطور حرفة القصص التاريخي في كل بلد و رواج الكتب التي تروي الأحداث كما وقعت و كأنه ثمة نفور من القراءات التاريخية المعتمدة على التحليل الدقيق و الفحص الصارم، و هذا ما يجعل «العروي» يخلص إلى النتيجة التالية: يصح لنا أن نقول أن التأليف التاريخي المعاصر نوع جديد مبني على مفاهيم جديدة ظهر و تطور بجانب النوع القديم دون أن يقضي عليه أو ينحل فيه 5 .

لكن من حقيقة هذه التحديدات للتاريخ الذي يدعو إليها «العروي»، أي فيما تكمن وجه الجدة في دعوة «العروي» في إنشاء و تأسيس التاريخ الجديد و المرتبط على وجه الخصوص بالبلاد المغاربة.

من متطلبات التجديد أولاً: خلق ذهنية معاصرة عند المؤرخين المغاربة، و ذلك بتوسيع و تعميم الدراسات المنهجية و الاستيمولوجية، إن مادة تاريخ التاريخ أي مراحل تطور صناعة المؤرخ مهمة في الجامعات المغربية، نلفت الانتباه من أن دعوة «العروي» هذه تلتقي مع دعوة «أركون» إلى الانفتاح على فتوحات العلوم الحداثية لفهم الظاهرة القرآنية بحث يمكننا هذا المطلب بربط الواقعة بالواقع ربطاً موضوعياً ينأى عن الأسطورة و كل أنواع الدوغمائية التي تنجز بدورها تسيجاً للعقل و لحريته، أما المتطلب الثاني يكمن في ضرورة تأسيس مدرسة وطنية للحفريات تقوم بأعمال منظمة و مبرمجة تهتم كل الفترات لا الفترة الرومانية وحدها كما فعلت المدرسة الاستعمارية، إن تقنيات الحفريات أصبحت اليوم يقول «العروي» ميداناً خصباً تتعاون فيه العلوم الطبيعية و الدقيقة و الإنسانية و كل بلد بهمل هذا الحقل يحكم على نفسه بالبكاء خارج حلبة التاريخ المعاصر، و الحفريات لم تعد تقنية تهتم الفترة قبل التاريخية، حتي لا يتوفر الدارس على وثائق مكتوبة، بل هي اليوم وسيلة لمعرفة كل الفترات حتى القريبة جداً

منا، فجزء كبير من تاريخ المغرب الإسلامي لا يمكن أن يعرف إلا باستعمال تقنيات.

أما المتطلب الثالث: إقرار دراسة اللهجات حسب توزيعها الجغرافي و تطورها الزمني، من المعلوم أن اللسانيات و السميائيات عرفت تقدما كبيرا في العقود الأخيرة تقدما باهرا إلى حد أنها تعتبر مع الاقتصاديات إحدى العلوم الإنسانية التي كادت أن تلتحق بدقة منهاجها و وثوق نتائجها بالعلوم الطبيعية.

ثم أخيرا المتطلب الرابع: تعميق مستوى التعرف على الالكترونيات، إذ لابد من إدخال هذه المادة في السنوات الأخيرة من الثانوي أو السنة الأولى من التدريس الجامعي، بدونها لا يمكن إدراك المناهج المستعملة في الدراسات الأجنبية و بالتالي الاستفادة منها 6 .

ينتقد «العروي» و بصورة جذرية أولئك الذين جعلوا من التاريخ كنزا مخفيا لا يمنح أسرارها أبدا و لا يظهرها لأي قارئ كان، لكن يعتقد أن الأمر غير ذلك إذ يجب على المؤرخ أن يحشد كل آليات و مناهج البحث كي يتمكن من فك ألغاز الماضي، و بالتالي الكشف عن مكنوناته، فالمؤرخ اليوم يختلف عمن سبقه و يتميز عنه بالنقد بدءا بنقد الرواية التاريخية » يهدف المؤرخ بقول «العروي» إلى معرفة الحدث، و هو يعرف أنه للوصول إليه لابد من فك الأحجية التي تحيط به و أن يكون على وعي تام بأن التاريخ هو الماضي -الحاضر، حاضر لمعنيين : حاضر بشواهد و حاضر في ذهن المؤرخ، بمعرفة الماضي تكون دائما نسبية إذ تستجيب لمطالبات الوضع القائم، و تجيب عن أسئلة حالية معناه أن الماضي التاريخي هو عالم ذهني، موضوع التاريخ هو الماضي الذي هو حاضر، أو ما سميناه بالتاريخ المحفوظ 7 ، و كما أشرت فإنه بإمكاننا أن نتقصى حيثيات المنهج الجديد الذي يدعو إليه «العروي» من خلال ندائه المستميت لأجل تجديد قراءة التاريخ العربي -الإسلامي و بالأخص تاريخ المغرب كمنهجية التاريخ الجديد هي الصورة الحقة للتاريخانية من منظور «العروي». و لقد أوضح أن تبني مثل هذه المنهجية القصد من ورائها الدخول في إطار تحديث العقل و تعرية النهج التقليدي الذي يخالف و توجهات الحداثة التي يطمح و يأمل كل عقل حر إلى بلوغها، و نجد «العروي» يصف بالعملية التطهيرية للتقليد «إن التاريخ التقليدي بناء عتيق تهاوت منه جوانب كثيرة، بعضها بسبب تناقضات ذاتية و بعضها الآخر من جراء نقد خارجي فوجب كنس الأنقاض قبل الشروع في تشييد بناء يخلفه ، هذا العمل التطهيري هو ما رميت القيام به 8، لكن كيف مارس «العروي» صناعة التاريخ ؟

يرتكز مشروع «العروي» على بعدين أساسيين حدد طبيعتهما عندما تساءل في عمله «مفهوم التاريخ» من هو المؤرخ؟ فأجاب: صاحب مهن ، وهو صاحب نظر أيضا، ومن هذا المنطلق نفهم عمق و مغزى أعماله النظرية و الرابط بين البعدين و المسؤول عن التلاحم بينهما هو الاستيعاب و الوعي بفكرة التاريخ 9 .

لقد تبنى «العروي» موقفا صارما في كل ما يعرقل أو يعطل بناء مثل هذا الوعي، ووجه جما عنفه النقدي ضد الرجوع إلى التقاليد الجامدة، ونظرا إلى مثل هذا الرجوع إجراما، ذلك لأن كل عودة هي مثابة حفاظ على البنيات العاملة للتهقير و ترمي إلى إرادة قتل بوادر التقدم، ذلك لأن الحداثة التي يقر بها «العروي» و يسعى من أجل استيعابها من قبل المواطن المغربي أولا و العربي ثانيا تتمثل في أن يتمتع كل واحد منا عن فرض عقيدته و تصوره للتاريخ و للمجتمع على أخيه و جاره، لابد أن نقبل جميعا واقع الاختلاف و نلحم بإجماع وهمي زائف، يتطلب التغيير تأسيس الناس و العمل على تحويلهم إلى مواطنين حتى نظهر الدولة في المجتمع، فتكون الديمقراطية وحدها أساس البشرية.

قائمة المراجع :

- 1 العروبي (ع): مجمل تاريخ المغرب، الكتاب الأول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص 14.
- 2 العروبي (ع) مجمل تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص 16.
- 3 العروبي (ع) مجمل تاريخ المغرب، المرجع نفسه، ص 49.
- 4 العروبي (ع): المرجع السابق، ص 19.
- 5 العروبي (ع): مجمل تاريخ المغرب، المرجع السابق، ص 20.
- 6 العروبي (ع): مجمل تاريخ المغرب المرجع السابق، ص 22، 23.
- 7 العروبي (ع): مفهوم التاريخ، مرجع سابق، ص 38.
- 8 العروبي (ع): مجمل تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص 23.
- 9 العروبي (ع): مرجع سابق، ص 23.